أعمال القلوب في القرآن والسنة

الأُنس بالله تبارك وتعالى

إعداد: أ/عبد العزيز مصطفى الشامي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإن من أعظم النعم التي يَمُنّ الله تعالى بها على عَبْده أن يفتح له باب الأُنس به؛ فيصبح قلبه مطمئنًا بذِكْر الله، راضيًا بشرعه وقدَره، مستبشرًا بمناجاته، يُحِبّ قُرْبه، ويجد اللذة والفرحة في طاعته، ويأنس بالله تعالى ويشعر بالراحة في الخلوة به ومناجاته، ويجد في اللجوء إليه سكينة لا تمنحها الدنيا بكل ما فيها.

والأُنس بالله تعالى ليس مجرد شعور عابر يَمُرّ بالقلب، وانما هو منزلة إيمانية رفيعة، وثمرة من ثمار معرفة الله والإيمان به ومحبته وطاعته والرضا عنه، حتى يصبح الله تعالى أحبَّ إلى العبد من كل ما سواه، ويجد قلبه في الإقبال عليه من السكينة والطمأنينة ما يجعله قادرًا على مواجهة تقلبات الحياة بثبات ويقين ورضا.

معنى الأُنس بالله تعالى

الأُنس في اللغة هو زوال الوحشة، والسكون إلى الشيء، والاطمئنان إليه. والأُنس بالله تعالى هو سكون القلب إليه، وطمأنينته بذِكْره، وفرحه بمناجاته، واستراحته إلى طاعته، وثقته برحمته وتدبيره.

فليس الأُنس بالله أن يعيش الإنسان بعيدًا عن الناس، أو أن يترك أسباب الحياة والعمل، وإنما حقيقته أن يكون قلبه مع الله أينما كان، وأن يجد في داخله ملجأ

Upload by : altawhedmag.com

ثابتًا يرجع إليه في الفرح والحزن، وفي القوة والضعف، وفي السعة والضيق.

قال الله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد: ٢٨)؛ هذه الطمأنينة من أعظم مظاهر الأُنس بالله؛ لأن القلب إذا عرف ربه، وأحسن الظن به، وأيقن برحمته وحكمته، لم تعُد الدنيا قادرة على أن تستولي عليه أو تهزّ أركانه كلما تغيرت الأحوال.

والأُنس بالله مرتبط كذلك بمعنى القرب من الله تعالى؛ يقول سبحانه: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» (البقرة: ١٨٦). وسبق أن الإمام ابن القيم جعل هذه الآية في صدر حديثه عن منزلة الأُنس؛ لأن استحضار قُرب الله ورعايته وإحسانه يقود القلب إلى الأُنس به.

حقيقة الأُنس بالله تبارك وتعالى

حقيقة الأُنس بالله أن يجد العبد قلبه متعلقًا بربّه، وأن تكون راحته الكبرى في ذِكره ومناجاته وطاعته، لا في متاع الدنيا وحده. وقد يملك الإنسان المال، والأهل، والأصدقاء، والمكانة، ومع ذلك يشعر بوحدة داخلية عميقة؛ لأن القلب لا يملأ فراغه الحقيقي إلا الإيمان بالله.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ففي القلب شعثٌ لا يلمُّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشةٌ لا يُزيلها إلا الأُنس به في خلوته، وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السُّرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلقٌ لا يسكّنه إلا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه». (مدارج السالكين: ٤/ ١٧).

ولهذا قال الله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا» (طه: ١٢٤)؛ فالضيق الحقيقي ليس دائمًا ضيق المال أو قلة الأسباب، وانما قد يكون ضيق القلب وبُعده عن ربه.

وفي المقابل، قد يمر المؤمن بالمحن والشدائد، لكنه يجد في قلبه من السكينة ما يجعله ثابتًا؛ لأنه يعلم أن له ربًّا يسمعه ويراه، وأن أمره كله بيد الله؛ ومن أبلغ ما يوضح ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا» رواه مسلم.

فالرضا بالله ربًّا ليس مجرد اعتقاد ذهني، وانما هو راحة القلب إلى الله، والثقة بحكمته، والاستسلام لأمره، والفرح بمعرفته وطاعته.

الأُنس بالله لا يعني الغفلة عن الناس

ومن المهم أن نفهم أن الأُنس بالله لا يعني الانقطاع عن المجتمع أو كراهية الناس أو ترك المسؤوليات. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس صلة بالله، ومع ذلك كان يعيش بين الناس، ويخالطهم، ويقضي حوائجهم، ويزور المرضى، ويجاهد، ويعلّم، ويقود الأمة. لكن قلبه كان متعلقًا بالله.

وهذه هي الصورة الصحيحة للأنس: أن تكون بين الناس بجسدك، وقلبك بالله؛ تعمل، وتكسب، وتتزوج، وتربّي أبناءك، وتخدم الناس، وتتحمل المسؤوليات، لكنك لا تجعل شيئًا من ذلك معبودًا لقلبك أو مصدر سعادتك الوحيد.

كيف يتحقق الأُنس بالله؟

١- معرفة الله تعالى

لا يمكن أن يأنس القلب بمن لا يعرفه. وكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته وأفعاله ازداد حبًا له، وثقة به، وإقبالًا عليه.

فإذا عرف أن الله هو الرحمن الرحيم، طمع في رحمته.

Upload by : altawhedmag.com

وإذا عرف أنه الغفور التواب، لم ييأس من مغفرته.

وإذا عرف أنه اللطيف الخبير، اطمأن إلى تدبيره.

وإذا عرف أنه الرزاق، لم يتعلق قلبه بالأسباب وحدها.

وإذا عرف أنه الحكيم، رضي بحكمه وإن خفيت عليه الحكمة.

ولهذا فإن تدبر أسماء الله وصفاته من أعظم أبواب الأُنس به؛ إذ إن معرفة هذه الأسماء تحمل العبد على معاملته بمقتضاها من المحبة والخوف والرجاء والتوكل.

٢-المحافظة على ذِكر الله تعالى

الذكر هو غذاء القلب، ومن أعظم أبواب الأُنس بالله؛ قال تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ» (البقرة: ١٥٢)، وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» (الأحزاب: ٤١).

والذكر لا ينبغي أن يكون مجرد ألفاظ تتحرك بها الشفاه، وإنما المقصود أن يجتمع اللسان والقلب؛ فيستشعر العبد أنه يذكر ربًا يسمعه ويراه ويعلم حاله.

ومن أعظم صور الذكر: قراءة القرآن بتدبُّر، والاستغفار، والتسبيح، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والدعاء، والتفكر في نعم الله جل وعلا.

٣- حُسن إقامة الصلاة والخلوة بالله تعالى

الصلاة ليست مجرد أداء فرض، وإنما هي موعد متجدّد بين العبد وربه. وفي الحديث: «وجُعلت قرة عيني في الصلاة» رواه النسائي وأحمد.

ومن أعظم أبواب الأُنس أن يكون للعبد أوقات يخلو فيها بربه، ولا سيما في الليل؛ حيث يهدأ الناس وتخفت الأصوات، فيقوم العبد بين يدي ربه، يصلي، ويقرأ، ويدعو، ويستغفر. وفي هذه الخلوة يتعلم القلب معنى لا يستطيع أن يتعلمه في ضجيج الحياة: أنه ليس وحده.

٤-الدعاء ومناجاة الله سبحانه وتعالى

من أعظم مظاهر الأُنس أن يجد العبد في الدعاء بابًا مفتوحًا لا يغلق؛ قال سبحانه: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (غافر: ٦٠)؛ والعبد المستأنس بالله لا يرى الدعاء مجرد وسيلة للحصول على مطلوب، بل يراه عبادة وقربًا ومناجاة. وقد يتأخر المطلوب، لكن القلب يربح شيئًا أعظم: الشعور بالقرب من الله والافتقار إليه.

٥- ترك المعاصي

المعصية من أعظم ما يُفسد الأُنس بالله؛ لأنها تضعف القلب، وتقطع طريق القرب، وتورث الوحشة. ولهذا فإن من أراد أن يذوق حلاوة الأُنس فليجاهد نفسه على ترك الذنوب، وليبادر بالتوبة كلما زلت قدمه.

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ» (البقرة: ٢٢٢)؛ فالتوبة ليست مجرد التخلص من الذنب، بل هي عودة إلى الله، وهذه العودة نفسها باب عظيم من أبواب الأنس.

ثمرات الأُنس بالله تعالى

للأنس بالله ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، ومن أبرزها:

١- الشعور بالطمأنينة: فالقلب الذي يأوي إلى الله لا تستعبده المخاوف؛ لأنه يعلم أن الله معه، وأنه سبحانه أرحم به من نفسه؛ قال تعالى: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد: ٢٨).

٢- قوة مواجهة الابتلاءات: فالأُنس بالله لا يعني أن المؤمن لا يحزن، ولكنه يعني أن الحزن لا يهدمه، وأن المصيبة لا تقطعه عن ربه؛ قال تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ» (البقرة:

Upload by : altawhedmag.com

١٥٥).

٣- استشعار حلاوة العبادة: فالعبد الذي يأنس بالله لا يرى الصلاة عبئًا، ولا القرآن ثقلاً، ولا الذكر عادة جافة، وإنما يجد فيها غذاء قلبه وراحة نفسه.

٤- حسن الظن بالله: فكلما عرف العبد ربه ازداد ثقة برحمته وحكمته وتدبيره. قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» متفق عليه.

٥- الاستغناء عن الخلق وعدم التعلق بهم: وليس المقصود ألّا يحتاج الإنسان إلى الناس في شؤون حياته، وإنما ألا يجعل قلوبهم مصدر قيمته وسعادته، وألّا يتعلق بهم تعلقًا ينسى معه تعلقه بالله.

٦- الشعور بالأمن في سكرات الموت والقبر: قال الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله: «فمن أطاع الله واتقاه وحفظ حدوده في حياته تولّاه الله عند وفاته، وتوفاه على الإيمان، وثبّته بالقول الثابت في القبر عند سؤال الملكين، ودفع عنه عذاب القبر، وآنس وَحْشته في تلك الوحدة والظلمة. قال بعض السَّلف: إذا كان الله معك عند دخول القبر، فلا بأس عليك ولا وحشة. ورُئي بعض العُلَماء الصالحين في النوم بعد موته، فسُئل عن حاله فقال: «يُؤنسني ربي عز وجل». فمن كان الله أنيسه في خلواته في الدُّنيا، فإنَّه يُرجَى أن يكون أنيسه في ظلمات اللحود إذا فارق الدُّنيا وتخلّى عنها» (نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس ٣/١٢٠).

كيف يصل العبد إلى منزلة الأُنس بالله تعالى؟

الوصول إلى الأُنس بالله لا يتأتّى عَبْر خطوة واحدة، وإنما هو طريق طويل من المجاهدة والتدرج. يبدأ الطريق بتصحيح التوحيد، ثم معرفة الله تعالى، ثم المحافظة على الفرائض، ثم الإكثار من النوافل والذكر، ثم ترك الذنوب، ثم دوام التوبة، ثم تدبُّر القرآن، ثم محاسبة النفس، ثم الصبر على الطريق.

والأُنس بالله تعالى هو أن يجد القلب سعادته الحقيقية عند ربّه؛ فإذا ضاقت به الدنيا لجأ إليه، وإذا أقبلت عليه النعم شكره، وإذا نزل به البلاء صبَر، وإذا أذنب تاب، وإذا خلا بربه استراح، وإذا ذكره اطمأن.

وليس الأُنس أن تخلو الحياة من المشكلات، وإنما أن يسكن الله قلبك وسط المشكلات. وليس أن تزول الأحزان، وإنما أن تجد في القرب من الله ما يمنع الحزن من تحطيمك. وليس أن تمتلك الدنيا كلها، وإنما ألا تمتلك الدنيا قلبك.

ومن أراد هذه المنزلة فليبدأ من حيث بدأ الصالحون: معرفة بالله، وصدق في التوبة، ومحافظة على الفرائض، وإكثار من الذكر، وصحبة للقرآن، وخلوة بالمناجاة، ومجاهدة للنفس، وترك للذنوب، وحسن ظن بالله.

وحينئذ يجد العبد أن أعظم ما كان يبحث عنه في الدنيا لم يكن مالًا ولا جاهًا ولا كثرة أصدقاء، وإنما كان قلبًا يعرف ربه، ويأنس به، ويطمئن إليه.

نسأل الله أن يرزقنا الأنس به والاطمئنان بذكره وحُسن التوكل عليه، والحمد لله رب العالمين.

Upload by : altawhedmag.com